حلم الخلافة في الأندلس
بعد إلغائها عام 422هـ/1038م

د.عبد الوهاب خليل الدباغ
المديرية العامة لتربية نينوى/ معهد اعداد المعلمين

تاريخ تسليم البحث : 2005/3/8 ؛ تاريخ قبول النشر : 2005/5/22

ملخص البحث :

أضحت الخلافة الأموية حُلُماً راود اهل الأندلس في فترتين تاريخيّتين خطيرتين : الأولى ، بعد انهيارها ونشوب الحرب الأهلية عام (399هـ/1008م) ومن ثم إلغائها عام (422هـ/1038م) , والأخرى بعد اجتياح جيوش العدو آخر القلاع – مملكة غرناطة – عام (897هـ/1492م) وإزاحة جماهير الأندلس عن تاريخهم وعقيدتهم .

Caliphate's Dream in Andalus
After its Abolition 422 H. / 1038 A.D

Dr. Adul Wahab Kahlil Al Dabagh

State Faculty of Ninevh Governorate-Teaches Institution

Abstract:

Omayad Caliphate has remained a public dream for Andalus masses at two critical periods in history: The first one – was after its collapse and breaking out the civil war in 399 H / 1008 A.D. its end in 422 H / 1038 A.D. as a result.

The Second – was after The last standing castle – Granada Kingdom – had been concquired by The enemy's armies in 897 H / 1492 A.D. , and putting the Andalus's masses far away of their history and principles.

لـم يـدرك الحاجـب العـامري الاخيـر عبـد الـرحمن بـن المنصـور بـن ابـي عـامر (القحطاني)المعروف بـ (شنجول) , يدرك خطر تجاوزه على الاسرة الاموية(القرشية) والاعتداء على حرمتها ,عندما طلب من الخليفة المحجور عليه هشام المؤيد[1] ,اعطاءه ولاية عهده, ذلك ان بني امية "الاشراف أو الشرفاء"[2] بالأندلس. قد امتلكوا عمقاً تاريخياً وشرعياً ,عزّزه خلفاؤهم وغرسوه في النفوس, فصبغوا الاندلس بصبغة اموية[3], ابتداءً منذ الايام الاولى لتاسيس الدولة الاموية على يد"رجل من أبناء الملوك يقال له عبدالرحمن"[4] ,"القرشي الذي يكون من بني امية"[5] ,الامر الذي ادى إلى الانقلاب الاموي على الحجابة العامرية.

غير ان نشوب الحرب الاهلية(الفتنة) بين قائد الانقلاب ,الخليفة الاموي محمد بن عبد الجبار (المهدي) (399 هـ / 1008 م) ومن جاء بعده ,من جهة,وبين منافسه وابن عمه سليمان بن حكم (المستعين) ومن جاء بعده من الخلفاء– من جهة اخرى[6] – . قد"اقنع الجميع باستحالة معالجة الاوضاع في اطار نظام الخلافة"[7], لذلك قررت مشيخة قرطبة برئاسة ابي الحزم بن جهور الغاء الخلافة , ولو ان بعض الباحثين[8] ,يرى في هذا القرار كارثة على الاندلس, لانه أعطى المسوغ لفك عرى البلاد بالغاء رمز وحدتها , الا ان خلو البلاد – على مايبدو–من رجل من طراز الخلفاء امثال عبد الرحمن الناصر(300–350هـ/912–961م), والحكم المستنصر(350–366هـ–961–976م), فضلا عن الكوارث الاجتماعية والاقتصادية التي لحقت بالبلاد من جراء الحرب الاهلية, هي التي قادت الاندلس الى هذا المصير.

ولكن , على الرغم من قرار الالغاء , استمرت الخلافة تلقي بظلالها على الاحداث السياسية وظلت مساجد الاندلس تدعو للخليفة الاموي من على منابرها حتى عام (450هـ/1058م) [9] ,واستمرت دور سك النقود في ذكر اسم الخليفة الاموي حتى بعد وفاة الخليفة المخلوع هشام المؤيد[10] , والذي اختلفت المصادر حول سنة وفاته , فقد نقل ابن عذاري عن عدة مؤرخين حديثهم عن ميتته الثالثة فكانت سنة (451هـ/1059م) [11].

والجدير بالذكر ان الخلافة في الاندلس كانت لبني امية منذ أن اعلنها عبد الرحمن الناصر عام (316هـ/928م) . وبما ان للخليفة وحده حق الإمامة والزعامة الدينية , لذلك لم يكن من اليسير على اكثر ملوك الطوائف ان يحتلوا مكان الخليفة , لأنهم كانوا مجرد حكام صغار لا ينحدرون من سلالات معروفة تتناسب مع وقار الخلافة وعظمتها[12] , لذلك عندما حاول مجاهد العامري ملك دانية ان يضفي على مملكته المستقلة وجوداًشرعياً , بايع عبدالله المعيطي الأموي خليفة للمسلمين سنة (405هـ/1014م) ,

وعين نفسه حاجباً له , كما هو مثبت على الدراهم المسكوكة في السنة المذكورة[13] . وهكذا شكلت الخلافة حُلُماً أو وَهماً أطلقت عليه المصادر الأوربية (وهم الخلافة La ficion califal) [14], مما كان سببا في قيام العديد من الانقلابات , والصراعات السياسة في البلاد.

ففي قرطبة حاولت المشيخة برئاسة أبي الحزم بن جهور ,التصدي لاية محاولة تدعو الى عودة الخلافة من جديد , فاصدرت بيانا نودي به" في الاسواق والارباض ان لايبقى بقرطبة من بني امية احد" وكان ذلك في يوم الثلاثاء (12ذي الحجة422هـ/30تشرين الثاني1031م) , [15]وبناء على ذلك , قامت بنفي نقيب قريش ابي مروان عبد الملك بن الاصبغ المرواني (ت436هـ/1044م) من قرطبة "لفرط تشيعه لبني امية"[16].

وقامت تلك المشيخة باغتيال امية بن عبد الرحمن العراقي(الاموي) في شهر جمادى الاخرة من عام (425هـ/1033م)بموضع يعرف قرية راشد ,في اثناء عودته من منفاه في الثغر الاعلى إلى بلدته قرطبة[17] , وكانت المشيخة قد نصبته خليفة صورياً لبضعة ايام , كي يتسنى لها تسويغ امر خلع الخليفة هشام المعتد , واصدار قرار الغاء الخلافة , وعند ذلك قامت بنفيه[18] . ويبدو ان امية حاول جمع انصار له من اهالي الثغر الاعلى والمطالبة بعودة الخلافة الاموية , مما كان سببا في اغتياله .

وبالرغم من ان المشيخة قد نجحت في اعادة الاستقرار إلى قرطبة , وانعشت الحياة الاقتصادية والأجتماعية فيها[19] , الا انها وقفت عاجزة امام الشائعات التي روجها دعاة الخلافة الاموية , حول ظهور الخليفة الاسبق هشام المؤيد , ومفادها , ان الخليفة المذكور لم يمت ، بل كان يتجول في بلاد المشرق سائحا , وهو الان قد رجع إلى الأندلس ليعيد مجد الاسرة الاموية, ووصل الخوف بابن جهور على درجة انه شك بولاء الشاعر ابن زيدون أبي الوليد أحمد (394-463هـ/1003-1070م) بسبب حبه للاميرة والشاعرة الاموية ولادة بنت المستكفي , واعتقد بان ابن زيدون ضالع في الدعوة لخلافة هشام المؤيد الاموي , والتآمر على سلامة حكومة المشيخة في قرطبة[20] .

وكانت قد ظهرت اشاعة حول عودة هشام المؤيد في بادئ الامر عام 426هـ , في مدينة المرية , ولم تثمر في شئ , إلى ان سمع بها حاكم اشبيلية ابو القاسم بن عباد (ت433 هـ/1042م) , فحاول توظيفها من اجل تحقيق مطامحه السياسية ، ومنها , ابعاد بني حمود الذين حكموا قرطبة بعض الوقت في عصر الفتنة باسم الخلافة الحمودية, (407 – 414هـ / 1016 – 1023م) فحاولوا بسط نفوذهم على الاندلس مرة اخرى باسم الخلافة[21] .

والامر الذي شجع حاكم اشبيلية على توظيف هذه الإشاعة أيضاً , هو ان رعاياه "استقبحوا بقاءهم بغير خليفة"[22] , فأتى برجل مغمور يشبه إلى حد كبير الخليفة هشام المؤيد, يدعى خلف الحصري , وادعى انه هو الخليفة الذي تدور حوله الشائعات[23], فتسابق الناس إلى اشبيلية على بيعته"محبةً"[24], ومالت نفوس اهل قرطبة إلى هذا الدعي, فقرروا "نصبه اماما للجماعة"[25] الامر الذي ارغم زعيم مشيخة قرطبة ابن جهور على القبول ببيعته بالرغم من علمه بزيفه.

وفي سرقسطة قام عبدالله بن حكم , احد قادة الثغر الاعلى الاندلسي بالانقلاب على الامير المنذر بن يحيى التجيبي , في شهر محرم (430هـ/1038م) واعلن في خطبته امام الاهالي , انه ما قام بذلك الا ليعاقب "من عصى امير المؤمنين هشاماً , ودفع حقه , يريد بذلك الرجل الذي كان يدعى له يومئذ باشبيلية"[26].

ولم يكتف قائد الانقلاب بهذه الخطوة , بل اعلن ترشيحه لابرز انصار بني امية في سرقسطة , وهو سليمان بن هود الجذامي , حاكما جديدا , ذلك ان هذا الرجل لم يستجب لدعوة الامير المنذر التجيبي بالانسحاب من المعركة التي خاضها الخليفة الاموي(المرتضى), ضد بني حمود سنة (409هـ/1018م) , ووصف انسحاب سيده المنذر من المعركة – آنذاك – بالعار والفضيحة[27].

وفي مقابل تلك المواقف الحالمة بالخلافة , رمز الوحدة الاندلسية وقوتها , كانت هنالك دعوات تحاول تكريس التجزئة والانفصال عن السلطة المركزية , من خلال رفض الخلافة ومشروعية قيامها في الاندلس والتي كانت في نظرها تعد كابوساً لا يطاق, ومن ابرز من مثل هذا الاتجاه , اسماعيل بن ذي النون الذي بدأ حكمه لمدينة طليطلة سنة (427هـ/1035م) , اذ كان "ينال من السلف الصالح"[28], ولا يعترف بامامة الامويين قائلاً "لو نازعني سلطاني هذا الصديق , لقاتلته , فكيف اسلم سلطاني لمن يدعي اليه من بني امية , ممن لا يوجب الله طاعته"[29] ,وكان يطعن بالخلافة الحمودية كذلك , ويقول عن بني حمود , انهم "ادعياء فعل الله بهم وصنع"[30] , وينفي حصر الخلافة في قريش , ويتجاوز إلى ابعد من ذلك , ويعتقد بعدم وجود اساس شرعي للسلطة , وانها برأيه مبنية على القوة , اذ يقول "احق الناس بالملك من استقل به"[31] .

وكان محمد البرزالي (ت434هـ/1042م) حاكم قرمونة يدعو إلى "طمس رسم الخلافة من معاناها ... وطرد قريش عن سلطانها إبطالاً للإمامة "[32] , وصفه المؤرخ ابن حيان بـ"شهاب الفتنة"[33] , لأنه "عمّ الجهات كلها تدويخا , كلما آب إلى جهة صار إلى سواها , حتى آثر آثارا قبيحة"[34] .

ويرى الباحث أن الحلم الأندلسي بأقامة الخلافة الاموية قد ظهر في عصرين منحطّين سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في تاريخ الأندلس ولم يظهر في غيرهما , الأول: في العصر الذي تناولناه وهو عصر ملوك الطوائف (الذي بدأ فعلياً منذ عام 400هـ/1009م , ورسمياً منذ عام 422هـ/1038م) . والثاني: هو عصر دمار الدولة والوجود الاندلسي بانهيار مملكة غرناطة آخر معاقل الاندلس عام (897هـ/1492م) ويعود السبب في الانقطاع الطويل للحلم الاندلسي بين هذين العصرين إلى ظهور دولة المرابطين ومن بعدها دولة الموحدين اللتين استطاعتا أن توحدا الأندلس وتملان الفراغ السياسي والعسكري وتواجهان الأخطار الخارجية المحدقة بالأندلس.

إن حلم الشعب الاندلسي في إقامة (خلافة أموية) تلم شملهم وتقودهم , قد عاد من جديد بعد انهيار غرناطة و سقوط الاندلس نهائياً, ذلك بأنهم قد ذاقوا مرارة الاضطهاد والارهاب من قبل السلطات الاسبانية المحتلة,على الرغم العهد الذي قطعه الملك الاسباني فرديناند للمسلمين بعد انتصاره, والذي تضمن بنوداً عديدة منها((تامين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال,وابقاء الناس في اماكنهم ودورهم, ...وإقامة شريعتهم... وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك,وان لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا احداً...))[35].

غير ان ذلك العهد لم يدم طويلاً, فقد شنت القوى السياسية والدينية في أسبانيا حملة تنصير قسرية ضد الاندلسيين ، أجبرتهم على الرحيل أو الدخول في النصرانية والردة عن الإسلام , فمنهم من رحل ومنهم من دخل في النصرانية تُقيةً , بينما ظلوا يمارسون شعائر الإسلام سراً[36] , حتى سموا بـ(الموروسيكيين). أي المسلمين الصغار[37] ولم يقف الموروسيكيّون مكتوفي الايدي امام هذا الارهاب , فاجتمعوا حول رجل من سلالة بني امية ونصّبوه خليفةً عليهم , اسمه العربي (محمد بن امية) واسمه الاسباني دون فرناندو دي فالور(Don Fernando de valore) وذلك في (976هـ/27 كانون الاول 1568م) قادهم الى ثورة عارمة في عصر الملك فيليب الثاني سنة (974هـ/1566م) عرفت بثورة (البُشُرات Alpujarras) [38] نسبة الى المنطقة المحصورة بين جبال سيرانيفادا(Seranevada) , وبين البحر المتوسط , الذي يقطنها نسبة كبيرة من الموروسيكيين , وقد كتب الاسباني الغرناطي مارتينس دي لاروزا[39] (Martines de Larosa) (1797–1862م) مسرحية حول هذه الثورة اسماها بـ(ابن امية أو ثورة الموروسيكيين) معتمداً في عمله على مصادر تاريخية معاصرة لتلك الاحداث.

وقد استمرت الثورة مشتعلة بالبُشُرات بقيادة محمد بن امية أكثر من سنتين , لكن الخيانة لعبت دوراً بارزاً في اغتياله على يد أنصاره وأقرب الناس إليه , غير أن زعماء الثورة لم يحيدوا عن سلالة بني امية , فقرروا تعيين ابن عمه دييغو لوبث (Diego lo pez) , المعروف بابن عبو زعيماً لهم , حيث تسمى بأسم مولاي عبد الله محمد بن عبو ملك الاندلسيين. [40] .

الخاتمة :

بلغت الأندلس في عصر مؤسس الخلافة اوج عظمتها وتقدمها بتماسكها الداخلي وسمعتها الدولية ، ولكم يكن يخطر على بال أي فرد اندلسي ان تنهار هذه المؤسسة بهذه السهولة ، وان تلغى نهائيا ، ولا سيما وان الخلافة الأموية تمتعت بشرعية (قرشية) ، وعمق تاريخي بعيد المدى .

وعندما لم يأت البديل الأفضل ، تشكلت مظاهر الخيال الجمعي والتمنيات ، الأمر الذي استغله بعض حكام الطوائف والأقاليم سياسيا ، فقاموا بانقلابات عديدة بأسم الخلافة الأموية لكنها جميعا فشلت ، لانها لم تكن صادقة بادعائها ولم تدرك الواقع التاريخي ولم تستوعب ظروفه (الداخلية والخارجية).

وعندما سقطت دولة الأندلس برمتها واصبحت البلاد محتلة من قبل القوات الأسبانية ، عاد الحلم من جديد ، وفشل مرة اخرى، على الرغم من صدق الثوار في محاولتهم هذه المرة، ولكن ادراك الواقع واستيعاب الظروف الموضوعية (الداخلية والخارجية) هو الذي كان ينقصهم .

هوامش البحث :

1. تولى الخلافة بعد وفاة والده المستنصر بالله 366هـ , ولم يتجاوز العاشرة من عمره , فوقع تحت وصاية الحاجب المنصور بن ابي عامر وبمساندة والدته السيدة صبح , وظل هشام تحت وصاية المنصور واولاده من بعده حتى سقوط الدولة العامرية 399هـ , ولم يكن هشام يمارس اية سلطة طيلة تلك الفترة من حياته , وكانت قصة حياة وموت هذا الخليفة من عجائب عصر الفتنة , انظر , ابو عبدالله محمد الحميدي , جذوة المقتبس (القاهرة , الدار المصرية للتأليف والترجمة , 1966) ص17, وانظر ابو العابس احمد بن عذاري , البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب تحقيق ج.سكولان , وليفي بروفسنال (بيروت , دار الثقافة , 1997)ج2 , ص 278 , ج3 , ص249 .
2. ابو الحسن علي ابن بسام , الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة , تحقيق احسان عباس (ط2, بيروت , دار الثقافة , 1979) , ق1 م2 , ص606 , علي بن موسى بن سعيد , المغرب في حلى المغرب , تحقيق شوقي ضيف (ط3 , القاهرة, دار المعارف , 1978) ط1 , ص 187.
3. محمود علي مكي , التشيع في الاندلس من الفتح حتى نهاية الدولة الاموية, صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية مجلد2 ,العدد 1-2 (مدريد , 1954) , ص118.
4. مؤلف مجهول , أخبار مجموعة , نشر لافوونتي القنطرة , (مدريد 1867) ص 54-55 ريانهارت دوزي , تاريخ مسلمي اسبانيا , ترجمة حسن حبشي (القاهرة, دار المعارف , 1963) , ص 186-187.
5. مؤلف مجهول , فتح الاندلس , تحقيق دون خواكين دي كونتالت (الجزائر , 1889) , ص 45.
6. حول هذه الحرب الاهلية , انظر بالتفصيل , عبدالوهاب خليل الدباغ , الاندلس بين 399-422هـ , دراسات سياسية حضارية , رسالة دكتوراه غير منشورة (كلية الاداب , جامعة الموصل 1996) ص1 ومابعدها .
7. احمد الطاهري , ثورة العامة فيفي اواخر عصر الخلافة , مجلة البحث العلمي , العدد 36 (الرباط , جامعة محمد الخامس , 1986) , ص 119.
8. حسين مؤنس , معالم تاريخ المغرب والاندلس , (القاهرة , دراسات ومطابع المستقبل , 1980) , ص 359.
9. ابو محمد بن حزم , رسائل ابن حزم الاندلسي , رسالة في ذكر من اوقات الامراء وأيامهم بالاندلس , تحقيق احسان عباس ,(بيروت , الدار العربية , للدراسات والنشر , ج1 , ص 204 , الحميدي , جذوة المقتبس , ص 30.

10.كليليا سارنللي تشركوا ,مجاهد العامري قائد الاسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن 5 هـ ,(القاهرة , مكتبة البيان العربية , 1961) ص41.
11.ابن عذاري , البيان المغرب ,ج3 , ص 249.
12.تشركوا , مجاهد العامري , ص40 .
13.المرجع نفسه , ص151-152
14.المرجع نفسه , ص 40 .
15.ابن عذاري البيان المغرب ج3, ص 152, لسان الدين بن الخطيب , اعمال الاعلام فيمن بويع من قبل الاحتلام من ملوك الاسلام , المنشور تحت عنوان تاريخ الاندلس الاسلامية , تحقيق ليفي بروفنسال (ط2 , بيروت , دار المكشوف , 1956) ص 139.
16.ابو الفضل عياض بن موسى بن عياض , ترتيب المدارك وتقريب المسالك , تحقيق احمد بن بكر محمود (بيروت , منشورات دار مكتبة الحياة ,1965) ج4 , ص 742.
17.ابن عذاري , البيان المغرب , ج3 , ص187 .
18.المصدر نفسه , ص 148-151.
19.انظر , خالد الصوفي , تاريخ العرب في اسبانيا , جمهورية بني جهور , (دمشق المطبعة التعاونية ,1959) , ص 50.
20.عبد الرزاق الهلالي , ولادة ودورها في حياة ابن زيدون , بغداد, دار المعارف, 1976, ص 35 , ويذكر المؤلف في ص 36-44 , ان ابن جهور سمح لولادة (ت 484هـ) باقامة صالون للشعر والغزل , وذلك للحط من الاسرة الاموية , حتى لا يفكر اهالي قرطبة بالدعوة إلى عودة الخلافة الاموية .
21.ابن بسام , الذخيرة , ق1 م1 , ص 186 , ابن عذارى , البيان المغرب , ج3 , ص 197-198.
22.عبد الواحد المراكشي , المعجب في تلخيص اخبار المغرب , تحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة , لجنة احياء التراث الاسلامي , 1963) , ص 151.
23.عن هذا الخليفة الدعي يقول ابن حزم "ظهر رجل حصري بعد اثنين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد , وادعى انه هو , فبويع له وخطب له على جميع منابر الأندلس في اوقات شتى , وسفكت الدماء وتصادمت الجيوش في امره", ويؤيد ابن حيان, هذا الراوية فيقول "انبعثت في ذلك من الفتن وجرت من المحن , وصرع من الجبابرة ونقل من الدول " انظر رسائل ابن حزم , نقط العروس , ص 97 , ابن عذاري ,البيان المغرب , ج3 , ص199.

24.ابو مروان عبد الملك بن الكردبوس , تاريخ الاندلس لابن الشباط , نصان جديدان , النص الاول , قطعة من كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء , تحقيق احمد مختار العبادي (مدريد , معهد الدراسات الإسلامية , 1971) , ص 68 .

25.ابن عذاري , البيان المغرب , ج3 , 198 .

26.ابن بسام , الذخيرة , ق1 م1 , ص 187 , ابن عذاري , البيان المغرب , ج3 , ص 178 .

27.قارن ابن عذاري , البيان المغرب , ج 3, ص 126–127.

28.ابن سعيد , المغرب في حلى الغرب , ج2 , ص 12.

29.ابن بسام , الذخيرة , ق4 م1 ,ص 143–144.

30.المصدر نفسه , ص 144.

31.المصدر نفسه , ص 144.

32.المصدر نفسه , ق 2 م1 , ص 21.

33.المصدر نفسه , ص 28.

34.المصدر نفسه , ص 20.

35.أحمد بن محمد المقري , نفح الطيب , بيروت , دار صادر , 1968 , جـ 4 ص 525.

36.انظر محمد عبد الله عنان , نهاية الأندلس , تاريخ العرب المتنصرين , القاهرة , مكتبة الخانجي , ط4 , 1987 , ص 342– 496.

37.عبد الرحمن علي الحجي , التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة , بيروت , 1976 , ط1 ,ص569.

38.عبد الواحد ذنون طه , حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة, بغداد , دار الشؤون الثقافية العامة , 1988 , ص 25 وما بعدها .

39.ترجمة لطفي عبد البديع , الكويت , 1974 , ص 10 .

40.انظر بالتفصيل طه ,حركة المقاومة العربية, ص 63.